

الطبيعة الدينية للأخلاق في فكر علي عزت بيجوفيتش

*The religious nature of morality in the thought of Alija Izetbegovic*يمين بوقرة^{1*}، أ.د. الحاج اوحمدة دواق²¹ مخبر حوار الحضارات والعولمة LDCM، الجزائر، yamin.bouguerra@univ-batna.dz² مخبر حوار الحضارات والعولمة LDCM، الجزائر، elhadj_1971@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2024/10/22 تاريخ القبول: 2025/03/03 تاريخ النشر: 2025/04/12

ملخص:

سيطر النموذج المادي على عقل الانسان ورؤيته للعالم قرونا طويلة. ولا أدل على ذلك تلك المقاربات العلمية المتجذرة في تناول مختلف الظواهر خاصة تلك التي تعد إنسانية. إذ اتسعت لتشمل ليس فقط تصور شكل الحركة التاريخية ونظام التغيرات الاجتماعية، واشكال التنظيم الاجتماعي إنما أيضا طبيعة القيمة الخلقية وماهية الخير والشر والفضيلة والرديلة (إن هي الا انعكاس لقوى الإنتاج وعلاقاتها). إلا أن استعصاء الظاهرة الإنسانية وأصلاتها وتركيبية الطبيعة الانسانية وتعقدها فرض على العقل البشري إعادة النظر في مقولاته ومفاهيمه ومقارباته، وأصبح أكثر استلهاما للأفكار الدينية في تحليلاته وتفسيراته.. وظهرت محاولات لتأسيس الظاهرة الإنسانية عموما والأخلاق خصوصا على اسس فوق- طبيعية أو متعالية أو دينية. وبحكم أن هذه المحاولة لم تكن مقتصرة على ثقافة معينة فقد كان لها امتداد في الفكر الاسلامي المعاصر في شخصية المفكر والفيلسوف ورئيس البوسنة السابق علي عزت بيجوفيتش.

كلمات مفتاحية: التطور، المنفعة، نزعة الإيثار الأصلية، الدين

Abstract:

The materialistic model has long dominated human minds and their perception of the world. This is evident in scientific approaches deeply rooted in the examination of various phenomena, especially those related to humanity. These approaches extend beyond historical movement and social change, encompassing the intrinsic nature of values, the essence of good and evil, virtue, and vice (all of which are reflections of productive forces and their relations). However, the complexity of human phenomena, their authenticity, and the intricate nature of human existence have compelled human minds to reconsider their statements, concepts, and approaches. This revaluation has even inspired religious ideas in their analyses and interpretations. Attempts to establish a broader understanding of human phenomena, particularly ethics, have been made based on supernatural, transcendent, or religious foundations. Notably, this endeavour is not limited to any specific culture; it extends to contemporary Islamic thought, exemplified by the philosopher and former Bosnian president, Alija Izetbegovic

Keywords: Evolution, utility, altruism, religion

1. المقدمة:

محاولات استيعاب الإنسان ضمن أفق التطور؛ أو إعادة بنائه داخل المنظومة الداروينية مازالت مستمرة منذ ظهور كتاب " عن أصل الانواع عبر طرق الانتقاء الطبيعي " سنة 1859. فأى تأسيس أو تفسير لظاهرة ما سواء كانت طبيعية أو إنسانية- وحتى تكتسب صفة الدقة والعلمية- يجب أن تستند إلى مفاهيم ومقولات علم البيولوجيا التطورية، أو البيولوجيا الاجتماعية وإلا فهو تفسير لاهوتي غيبي أو خرافي.

في الحقيقة أن التفسيرات العلمية للظواهر الطبيعية والإنسانية في مقابل التفسيرات اللاهوتية بدأت مع "نشر جاليليو كتابا أيد فيه نظرية عالم الفلك البولندي كوبرنيكوس القائلة أن الأرض وجميع الكواكب السيارة تدور حول الشمس وحول نفسها، مخالفا بذلك نظرية بطليموس في المحورية الأرضية، وهي نظرية حظيت بتأييد الكنيسة الكاثوليكية"¹، ثم توالى الاستبدال العلمي لمختلف النظريات والأفكار التي اعتبرت في طبيعتها وأصلها دينية، إذ نجد هذا الاختلاف قد انعكس في الجيولوجيا فيما يخص تفسير السمات والأشكال والمظاهر الأساسية للأرض " إذ تنص نظرية الاطراد uniformitarianism على أن العمليات الطبيعية البطيئة والتدرجية التي نراها اليوم مثل التعرية – هطول المطر، الزلازل والرياح- شكلت الأرض بصورة رئيسية، بينما يعتقد الخلقيون المؤمنون بنظرية الكوارث catastrophism أن الأرض شكلت وكونت بواسطة كوارث مفاجئة مثل طوفان نوح"². أما في مجال علم البيولوجيا وبالضبط محاولات تفسير منشأ وأصل الكائنات الحية، إحتدم الجدل حول طبيعة التغيرات والتميزات وأصولها. فقد حل التكيف محل التصميم لوصف التفصيل المذهل والإتقان الواضح للعديد من ملامح الكائنات الحية، ولوصف الملاحظة التي تقضي أن لها بنى يبدو أنها مفيدة لها؛ هذا التفسير البيولوجي لمنشأ مظهر التصميم أو أوجه التكيف الذي حل محل فكرة المصمم يعتبر أمر محوري في علم الأحياء التطوري التالي على زمن دارون³. وبالتزامن مع هذه التطورات ظهرت محاولات موازية تهدف إلى ابتكار تفسيرات طبيعية للظواهر والمفاهيم والأفكار الدينية، فقد اعتبرها علماء البيولوجيا التطورية مثل باقي التغيرات الحاصلة في عالم الحياة، إذ أصبح مما يتزايد وضوحا أن "العناصر العقلية المكونة للتدين، أي القدرة على أن يكون المرء متدينا تبين وجود تصميم لفرض خاص وأن ممارستها في حياة التدين اليومية(بأن تكون في شكل تصوف، أو شعائر، أو أساطير، أو احتفاليات، أو تابوهات أو الخوف من الرب، أو الأرواح، أو الضمير الحي) هي في المتوسط أمر وظيفي بيولوجيا. هذا هو السبب في أن التدين يمكن النظر إليه على أنه تكيف تطوري ينتهي إلى طبيعة الإنسان الشاملة باعتبار أنه مكون ثابت وراثيا"⁴.

أما في مجال الأخلاق فقد ظهرت محاولات استيعاب الأخلاقية الإنسانية، داخل نماذج سلوكية يعتقد أنها متوافقة مع حدود الانتقاء الطبيعي والبقاء للأصلح؛ باعتبارها تفسيرات طبيعية مادية للظواهر الإنسانية ويطلق عادة عليها اسم الأخلاق التطورية أو نزعة الإيثار البيولوجية⁵. هذا التأسيس للأخلاق وفق علم الأحياء الاجتماعي يفترض مسبقا امتلاك هذا العلم من خلال مقولاته ونظرياته تناظرات في مستوى ما يسمى بالأخلاقية الإنسانية (مقاربة الواجب).

أمام هذا الطرح - وبالنظر إلى خصائص كل من الأخلاقية الإنسانية والأخلاق التطورية - يظهر تناقض يوحي بعدم القدرة على الجمع بينهما ما دفعنا إلى طرح التساؤل الآتي: هل التأسيس الطبيعي- البيولوجي للأخلاق الإنسانية ممكن؟ وهل يمكن تفسير النظام الأخلاقي الإنساني بناء على المسلمات الرئيسية للتطور بعيدا عن أي مصدر متعال أو ديني؟

2. الأفكار الأساسية في نظرية التطور

وجدت النظرية التطورية في الأساس بهدف تفسير منشأ وتشكل وارتقاء الأنواع المختلفة للكائنات الحية من خلال مفاهيم علمية، ومن ثم فهي تدرس الحياة على أساس أنها ظواهر وموضوعات منتجة بفعل عوامل وعمليات طبيعية مادية. ويمكن تقسيم البحث في هذه النظرية إلى ما هو خاص بالفرضيات، وما هو خاص باليات العمل أو كيفية حدوث التغيرات.

1.2 الفرضيات:

2.1.1 إنتاج الكائنات الحية بفعل عوامل الطبيعة: أن الكائنات الحية (الحيوانات والنباتات) يمكن أن تكون مثل الصخور والمعادن والجبال والأنهار؛ أشياء منتجة بفعل الطبيعة أو بفعل عمليات طبيعية⁶. وهذه الفكرة مستلزمة من تأثر دارون بالنظرية الإطراكية (الانتظامية) التي ابتكرها تشارلز لايل في كتاب مبادئ الجيولوجيا: محاولة لتفسير التغيرات السابقة لسطح الأرض بالإشارة إلى الأسباب الفعالة الآن، والتي تعتمد على فلسفة: الحاضر مفتاح الماضي. إذ شكلت بالنسبة له نموذجا مؤسسا بمتانة لعمليات طبيعية تدريجية بمقدورها إنتاج تغيرات مذهشة إذا منحت وقتا. لو أن التغيرات الطبيعية التدريجية أنتجت الجبال والوديان ربما أمكن للتغيرات البطيئة والتدريجية إنتاج أنواع حية جديدة.

2.1.2 الانتقاء الصناعي: تنوع وتطور الكائنات في الطبيعة يشبه إلى حد ما وبصورة تقريبية مصغرة ما يحدث في عالم مربّي ومنجّي الحيوانات والنباتات (عالم الزراعة) فكما يستخدم هؤلاء التهجين الحيواني

والنباتي من خلال الانتقاء الصناعي بانتقاء الصفات والخصائص المرغوبة؛ تفرض البيئة شيئا مشابها يمكن أن نطلق عليه مصفاة انتقائية، مدفوعة وموجهة تطوريا لتحسين النسل ومحابية للكائنات الأقدر على البقاء والتكاثر.⁷ إن تعديل الكائنات بواسطة البشر أمر ممكن الحدوث على نحو منتظم، ويمكنه أن ينتج مظهر التصميم الذي نراه في الطبيعة من خلال الاستيلاء الانتقائي للحيوانات والنباتات ذات السمات المرغوبة مثل المنقار، الرأس والريش في الحمام، اللحم، اللبن والصوف والوبر في الأغنام⁸، وقد خاض دارون نفسه هذه التجربة من خلال تربية الحمام، ومشاركة نوادي هواة تربية الحمام، فقد أشار أن تنويعات الحمام وخصائصها المميزة تأتي جميعا من أصل واحد هو الحمام الصخري في الهند.

2.1.3 نظرية الأصل المشترك أو السلف المشترك لكافة الأشكال البيولوجية: كل الكائنات الحية في يومنا هذا تحدرت من سلف مشترك، ومن ثم فهي تتشارك جميعا نفس الأقارب من الأسلاف، وبالتالي يمكن القول عنها أنها أبناء عمومة، ويمكن تمثيل التنوع الهائل في الكائنات الحية بشجرة أطلق عليها داروين اسم شجرة الحياة أو شجرة العائلة⁹، تتوزع فيه على شكل فروع تتحد من فروع، والفروع من شعب، والشعب من جذع كبير؛ نسب هائل للغاية يستوعب ويشمل كل الكائنات على امتداد تاريخ الأرض، ويرجع السبب في النهاية إلى أشكال أصلية وبدائية للحياة، التي منها تحدرت كل الأنواع. قد استوحى دارون هذه الفكرة التي تنطوي على أن النوع الواحد يمكن أن تتحد منه أنواع متعددة من الملاحظة التي توحى بالتشابه والتباين في النوع الواحد¹⁰ خلال الرحلة الاستكشافية التي قام بها في ثلاثينيات القرن 19م، عندما زارت سفينة بيجل سنة 1532 مجموعة الجزر الواقعة على خط الاستواء في المحيط الباسيفيكي، والتي تدعى أرخبيل جالاباجوس Galapagos.

2.2 آلية العمل - الانتخاب الطبيعي:

2.2.1 الصراع على البقاء: استعار داروين هذا المصطلح من عالم الاقتصاد السياسي الانجليزي توماس روبرت مالتوس صاحب كتاب مقال عن المبدأ السكاني الذي تأثر به، وحاول تطبيق نظريته على النبات والحيوان وقد ألهم داروين لكي يعثر في الطبيعة على الآليات الأساسية للانتخاب الطبيعي. وتبين هذه النقطة كيف يدين علم الاحياء للاقتصاد السياسي حسب جان روستان¹¹ ويمكن تحليل مبدأ الصراع الى نقطتين ونتيجة:

أ- نظرية الاكتظاظ السكاني: وتتمثل في معادلة عدم التناسب (التوافق، التوازن) بين إمدادات المكان والغذاء وبين الزيادة في تعداد السكان. الأولى يمكن زيادتها في أفضل الأحوال بمتتالية حسابية، أما الثانية

يمكن زيادتها بمتواليه هندسية. ففي عالم الأحياء يوجد ميل دائم يظهر لدى كل الكائنات الحية لزيادة نوعها أكثر مما تحتمل كمية الغذاء التي تحت تصرفها. ويعود سبب عدم التوافق إلى أنه لا توجد زيادة اصطناعية في الغذاء ولا كبح متعقل عن التزاوج¹².

ب- علم البيئة (الإيكولوجيا): الحياة - وفي أي مكان ما من الطبيعة- مرتبطة بعلاقات شبه تسلسلية بحيث يؤدي سقوط حلقة من السلسلة الى انهيارها، وقد أطلق ارنست هاككل على هذه السلسلة سنة 1899 اسم الايكولوجيا Ecology التي عرفها بأنها "مجموع العلاقات الودية أو العدائية التي تربط الحيوان أو النبات ببيئته غير العضوية أو العضوية بما في ذلك سائر الكائنات العضوية"¹³. وهي تنطوي على فكرة أن الحياة في مكان ما؛ ما هي إلا وحدة تنظيمية بيو- فيزيائية، أو هي حاصل مجموع علاقات متبادلة متداخلة معقدة حيوية- غير حيوية ذات طابع دينامي ووظيفي كمي ونوعي خاص إما بالنوع نفسه أو في علاقاته مع غيره. وتظهر هذه العلاقات على أشكال وأنواع مختلفة مثل تفاعلات المفترس- الفريسة وهي تشمل تفاعلات الطفيل- العائل، أكل العشب- النبات، أكل اللحوم - الفريسة. إلى جانب هذه العلاقة الغذائية هناك نماذج أخرى تتمثل في التكافل، والتنافس والتكاثر والدفاع. هذه الضروب من التفاعلات بين الأنواع ذات الفعاليات المتداخلة ايكولوجيا هي نقطة البداية في ايكولوجيا المجتمعات¹⁴.

إن الاختلال والاضطراب هو الحالة الطبيعية لأي نظام ايكولوجي وليس الاتزان والتعايش والاستقرار، ما يعني الصراع المستمر المدمر والعنيف من أجل الموارد النادرة للغاية مثل: الطعام والاقتران للتزاوج؛ كما أن "التنازع من أجل الحياة يكون أكثر شراسة بين الأفراد والضروب التابعة لنفس النوع وكثيرا ما يكون قاسيا بين الأنواع التابعة للطبقة نفسها"¹⁵. فهو لا يتأتى إلا من الزيادة في نسل الكائنات عن الحد الذي يتناسب مع ما تمنحه الموارد المتاحة، وبالتالي لا ينشأ ما دام المورد الطبيعي عامرا بالاحتياجات المعيشية بالقدر الذي يكفي كل الأفراد أو الأنواع الموجودة في المكان الواقع في نطاق هذا المورد، وهذا التعايش مألوف بين معظم آكلات العشب. وتزداد احتمالات حدوث التنافس وشدته إذا تشابهت الاحتياجات الغذائية للأفراد الموجودة بالقرب من المصدر، وهذا أمر مؤكد إذا كانت تنتهي إلى النوع نفسه، ولكنه أيضا محتمل الحدوث بين أفراد الأنواع المختلفة كالتنافس بين بعض أنواع القوارض آكلة البذور والنمل الذي يعتمد على هذه البذور كطعام رئيسي¹⁶.

ج- التمييز بين ماله علاقة بالجغرافيا الحيوية وماله علاقة بالوراثة: ويمكن تقسيم هذا العنصر الى ما يلي:

- التمايز بفعل التأقلم والتكيف: تتنوع الأشكال البيولوجية المختلفة من خلال عمليات التكيف مع الظروف البيئية، وهي عملية ناتجة في الأساس من التنافس والاقتتال على الشروط الضرورية للحياة والاقتتان أو بحكم وجود ميل الى تصعيد سباق التسلح في الحرب الدائرة بين الكائنات.

- السمات القابلة للتوارث: في سلالات الكلاب المختلفة توجد تباينات لا علاقة لها بالظروف البيئية بل لها علاقة بعامل الوراثة (توارث الجينات) مثل السمات العقلية والشخصية فبعضها ودود وبعضها شرس يصلح للاستخدام في الحراسة، الاهتمام للروائح، الميل للسباحة، ممارسة لعبة التقاط العصا، الذكاء، الأمراض، المعدلات العمرية، وهو ما ينطبق أيضا على التفاح، إذ نجد أن سمات الأنواع المختلفة من التفاح هي اختلافات قابلة للتوارث، وهو ما ينطبق أيضا على الإنسان¹⁷.

وهذا الانتقال للصفات والخصائص الوراثية يكون بفعل عمليات التطافر العشوائي في تتابعات دي ان اي ADN الخاصة بالجينات، فالاختلافات الوراثية إن هي إلا اختلافات في حروف تتابعات دي ان اي تترك في المعتاد تتابعات الأحماض الأمينية الخاصة بالبروتينات دون تغيير¹⁸. وبعض الاختلافات في السمات القابلة للتوارث تؤثر على البقاء والتكاثر، وعلى هذا الأساس سيقوم الأفراد الناجحون في البرية بتمرير جيناتهم (ومن ثم سماتهم الجيدة) إلى أبنائهم الذين سيملكون بالتبعية السمات التكيفية مثل السرعة¹⁹. كما اعتمدت نظرية التطور على مفهوم التغير في التركيب الجيني للتجمعات والأنواع مع مرور الزمن بفعل تفاعل التنوعات الوراثية والاختلافات البيئية وعمليات الانتخاب الطبيعي. فالتغيرات الحاصلة بفعل القوى الجيولوجية والفيزيائية في البيئة يمكنها ترك آثار كبيرة على خطى تطور الجينات في التجمعات المتماثلة²⁰. هذا التغير في التركيب الوراثي يحدث حسب قانونين هما: التطور الصغرى والتطور الكبرى²¹.

يمكن تدريس الانتقاء الطبيعي باعتباره عملية إقصاء. إن هؤلاء الذين لا يتكيفون مع ظروفهم وبيئتهم ولا يستطيعون التنافس بكفاءة على الموارد النادرة سينقرضون، ومن ثم لن يمرروا جيناتهم، بمعنى آخر السمات غير المفضلة لا تنتقى. وحدهم الأفراد القادرون على التنافس بكفاءة ويتكيفون مع ظروفهم، يمكنون لمدة كافية لتمرير جيناتهم. لقد توصلت بهذه الطريقة سمات جديدة في الانواع للسيادة استجابة للضغوط البيئية²².

3. النمط السلوكي الممكن إنتاجه عبر الانتخاب الطبيعي:

تشير الأبحاث في العلوم الانسانية والاجتماعية إلى وجود أنماط مختلفة من السلوك التي تحكم علاقة الأنا بالآخر؛ الإنسان بغيره. ومهما اختلفت وتنوعت من حيث أشكالها فإن جوهرها واحد. ومن هذه الزاوية يمكن تصنيف جميع هذه السلوكيات والتصرفات إلى نوعين من الأنماط: السلوكيات القائمة على فكرة

الواجب (أخلاقية إنسانية، أصلية، إثارية، غيرية)، وسلوكيات قائمة على أساس المصلحة (أخلاق اجتماعية؛ المصلحة المشتركة، أخلاق السعادة). فإذا نظرنا إلى هذه الظواهر من وجهة نظر تطورية فما هي السمات الأخلاقية التي يمكن أن تنتجها؟

1.3 نظرية التطور وأصول النزعة الوضعية في علم الأخلاق:

يوجد ارتباط تاريخي ومنطقي بين التطور وما يسمى بالنزعة الوضعية في علم الأخلاق (نظرية المنفعة والنظرية الاجتماعية) ويشير علماء البيولوجيا الاجتماعية إلى هذه العلاقة بالإشارة إلى ثلاثة أنماط يمكن أن تكون الأصول الأولى لها هي: انتقاء الأقارب، المعاملة بالمثل، الانتقاء الزمري.²³

ترى نظرية التطور أن كل سلوك ينطوي على صفة التعاون المشروط؛ المرتبط بالمنفعة هو سلوك أخلاقي، إثاري، غيري.. وبالتالي يمكن تعريف السلوك الأخلاقي - من هذه الزاوية - أنه أفعال تمارس بدافع مساعدة الآخر تكون نافعة ومفيدة له، ومكلفة؛ بمعنى لا تتكافئ مع المصلحة الشخصية للفرد وضد الرغبات والتطلعات الآنية له، بما يتضمن الأقارب أو القبيلة.

1.1.3 نظرية انتقاء الأقارب: يمكن القول إن التطور وعبر الانتقاء الطبيعي لا ينتج إلا سلوكيات إثارية لها علاقة برفع الكفاءة الجينية للفاعل ومن يتشارك معه هذه التركيبة²⁴، إذ يرتبط الإيثار بضمان بقاء، وتمير، وتحسين جينات الفرد في الأجيال القادمة. وهذه النظرية تفسر لنا انحصار التعاون والمساعدة في فئة الأقارب دون غيرها على اعتبار أنهم يتشاركون المادة الجينية نفسها. إذ يتشارك الأفراد المرتبطون وراثيا في الجينات وتأتي المساعدة لتعكس تعزيز بقاء هذه الجينات وضمان استمرار النسخ الجديدة²⁵. ويرى كثير من العلماء البيولوجيا أن هذه الفكرة تفسر لنا تفضيل الأقارب، الحب الأسري، الحس العائلي، العلاقة الأسرية، اهتمام الإخوة بعضهم البعض. خلاصة هذه النظرية " يمكن للمرء الغرق راضيا إذ يعلم أن جيناته محمولة لتنتقل إلى أجساد أخرى"²⁶.

1.3.2 المعاملة بالمثل: إذا كان التعاون لا يمكنه أن يتجاوز دائرة الأقارب فهو لا يتجاوز أيضا فكرة المعاملة بالمثل وما يسمى خدمة منك مقابل خدمة مني وهو أيضا مبدأ واحدة بواحدة ويأتي في صورة تبادل النفع بين فردين لا ثالث لهما وهو أشبه بتحالف اثنين على الاشتراك في قتال عدو إذا هاجم أي منهم²⁷، وهذا المبدأ يفسر أساسا تلك الصلات غير المرتبطة بالجينات أو الأقارب وهم الآخرون باعتبارهم جيراننا.

1.3.3 التعاون بين الجماعات الكبرى (الانتقاء الزمري): والصورة الثالثة التي يقدمها المنظور التطوري على أنها صورة أخلاقية إثارية - وهي صورة أكثر عمقا وتركيبية - هو التعاون والتشارك على مستوى الجماعات الكبرى الذي يتجاوز الأسر، وهو سبب ظهور ما يسمى بالمجتمع society، ويرجع هذا النوع من

التعاون إلى انصهار الأسر في أسر ممتدة، والأسر الممتدة في قبائل، والقبائل في مجتمعات²⁸ و التي تعتبر أعلى مرحلة للتطور وصلت اليه البشرية، حيث تحل المصلحة المشتركة العامة محل المصالح الخاصة على طريقة شبيهة بالتعاونيات، وخلايا النحل، والاقتصاد السياسي في مقابل الاقتصاد العائلي . وعادة ما تربط نظرية التطور ظهور هذه المرحلة من التطور بظهور الانسان وانفصاله عن الحيوان²⁹ ويمكن تعريف هذه الصورة على طريقة: يتطلب الأمر قرية كاملة لتربية طفل أو على طريقة الفوز في سباق التجديف في الزوارق لا يحتاج الى شخص أو اثنان وانما الى ثمانية أشخاص، فالتجديف بهذا المعنى مغامرة تعاونية³⁰.

إن الأفراد لا يتشاركون فقط الجينات بل أيضا المكان (القرية، المدينة)، العادات والتقاليد واللغة (العشيرة، القبيلة، الطبقة الاجتماعية). ويرجع هذا الاتحاد للأفراد في مجموعات حسب نظرية التطور إلى عدة عوامل:

- عمل المستعمرة، السرب أو القطيع يختلف عن عمل الأفراد، إذ معا يمكن إنجاز أشياء لا يمكن إنجازها على انفراد. فهناك فرق كبير بين من يسلك وفق منطق تفضيل (نحن) على (أنا) وبين من يسلك وفق منطق تفضيل (أنا) على (نحن)³¹.

- توجد علاقة بين التعاون داخل الجماعات من جهة ومبدأ الصلاحية والانتقاء الطبيعي من جهة أخرى. فالجماعات المتعاونة تمتلك الصلاحية والقدرة على التنافس والبقاء على قيد الحياة والتناسل أكثر من الجماعات الأنانية. وبالتالي لها ميزة انتقائية وانتخابية³². فالأخلاق بوصفها تفضيل (نحن) على (أنا)، (نحن) على (هم) تأصلت في الانسان باعتبارها وسيلة للمنافسة.

وترى وجهة النظر التطورية أن الأخلاق هي حل الطبيعة لمشكلة الأنانية، واخفاق الأفراد في تفضيل نحن على أنا. فهي الحل الذي تقدمه الطبيعة لمشكلة التعاون داخل الجماعات وتمكين الأفراد ذوي المصالح المتنافسة من العيش معا وتحقيق الازدهار³³.

ويمكن اعتبار ظاهرة الأخلاق الاجتماعية بالتوصيف السابق ذكره هي الأصول البعيدة لتلك الظاهرة التي دافع عنها إيميل دوركايم حيث اعتبر أن الأخلاق وسيلة لتحقيق منافع وأهداف اجتماعية، والنظر إلى الأخلاق بوصفها وسيلة وليست غاية في ذاتها. إذ " الأخلاق تبدأ من حيث الحياة في جماعة، ففي هذا الوضع وحده يصبح للنزاهة والاخلاص معنى"³⁴. فقد أثبت التاريخ أن جميع النظم الأخلاقية التي مارسها جميع الشعوب إنما هي وظائف للتنظيم الاجتماعي وترتبط ببنية هذا التنظيم كما أنها تتغير كلما طرأ تغير على هذه البنية³⁵.

4. اعتماد بيجوفيتش مقارنة: الاخلاقية الانسانية – نزعة الايثار الاصلية:

يتسم السلوك الأخلاقي (الأصلي، نزعة الإيثار الأصلية) تميزاً له عن أنواع السلوك الأخرى بخصائص تعتبر بمثابة محددات جوهرية، لأن أي سلوك لا يتسم بهذه الخصائص لا ينتهي إلى دائرة السلوك الأخلاقي ولا يمكن أن يسمى به، ومن أبرز السمات التي يتصف بها ما يلي:

1.4 خصائص السلوك الاخلاقي الأصلي:

4.1.1 الموضوعية بدل الذاتية: بمعنى أنه ينطوي على اتفاق وإجماع شامل للعقل العملي للإنسان. فأي رفض أو اعتراض أو عدم اتفاق هو تناقض. " فهناك توافق كبير جداً - على ادانة الظلم، القتل، الخيانة والكذب، الشفقة حرصاً على كبار السن، الأطفال والضعفاء، التصديق على الفقراء، النزاهة والأمانة- في ترانيم البابليين في جزيرة ساموس وقوانين مانو، وكتاب الأموات، والمختارات والرواقيون والأفلاطونيون وسكان أستراليا الأصليين والهنود الحمر"³⁶. وعلى هذا الأساس فالواجبات الأخلاقية تنتهي إلى عالم الحقائق لا إلى عالم الأذواق والرغبات والتفضيل الشخصي. إن واجب احترام الوالدين وكبار السن ليس مسألة ذاتية أو ذائقة بل هو أمر موضوعي.

4.1.2 النية بدل الفعل والأداء: فهو في جوهره نية وإرادة ورغبة في خير الشخص الذي يتلقى المساعدة لا خير المرء نفسه. وليس مجرد أداء وقيام بالفعل فقد تكون " هناك بعض الأفعال التي تحدث بما يتفق وما يأمر به الواجب، لكن ذلك لا يمنع من الشك فيما إذا كانت قد حدثت حقاً عن شعور بالواجب وفيما إذا كانت تحتوي تبعاً لذلك على قيمة أخلاقية"³⁷. إن التمييز بين الأفعال التي تتفق مع الواجب والأفعال النابعة عن شعور بالواجب ضروري لمعرفة أن محافظة الإنسان على أداء الواجبات لا يعني دائماً وبالضرورة أن الشخص خير أخلاقياً³⁸. وهذا ما أشار إليه دافيد هيوم في قوله: " إن الفعل ليس في ذاته قيمة خلقية، ولكي نعرف القيمة الخلقية لإنسان علينا أن ننظر في داخله، وحيث أننا لا نستطيع ذلك بطريق مباشر فإننا نصرف نظرنا إلى أفعاله، ولكن هذه الأفعال كانت ولا تزال مجرد رموز على الإرادة الجوانية، ومن ثم فهي أيضاً رموز للتقييم الأخلاقي"³⁹. إن هذا التحديد للسلوك الأخلاقي بوصفه نية وإرادة ومحبة في خير الشخص لا في خير المرء بنفسه اعتبره بعض علماء الأخلاق الجوهر والخلاصة: إذ أن " جوهر الأخلاق هو الإيثار، عدم الأنانية، الرغبة في دفع تكلفة شخصية لفائدة الآخرين"⁴⁰.

4.1.3 الحرية والمسؤولية بدل الاكراه: أي أننا يمكن أن نميز بوضوح بين أفعال مفروضة بالإجبار حتى مع عواقب خيرة، وأفعال اختيرت بحرية. الأولى تسمى بالأوامر الشرطية، أما الثانية تسمى بالأوامر المطلقة. " فالأخلاق تأمر بأوامر مطلقة أما الأوامر المشروطة فليست إلا أوامر جانبية في الأخلاق، إنها وصايا ونصائح وآداب وليست أخلاقا بالمعنى الدقيق"⁴¹. ويميز كانط في كتابه تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق بين نوعين من الأوامر أو الأحكام. الأول يمثل الضرورة العملية لفعل ممكن بوصفه وسيلة لبلوغ شيء آخر يريده الإنسان، أما الثاني هو الذي يعبر عن فعل مطلوب لأجل ذاته، لا تربطه صلة بهدف آخر⁴². فهناك أفعال خيرة لمجرد أنها وسيلة لتحقيق شيء آخر أو بالقياس إلى مقصد ممكن أو واقعي، وهناك أفعال خيرة في ذاتها غير مرتبطة بأي مقصد مجردة عن أي هدف آخر. وهنا يميز كانط بين ثلاث أنواع من الأوامر أو التعاليم: أوامر البراعة(فنية)، أوامر متعلقة بالسعادة؛ أوامر متعلقة بالصالح العام، أوامر أخلاقية متعلقة بالسلوك الحر بوجه عام، أي الأخلاق⁴³. والمقصود بكل هذا أن الأمر المطلق منزّه عن كل عرض أو هدف، وبالتالي فهو لا يرتبط بالإنسان بوصفه عضوا في مجتمعا أو باعتباره كائنا بيولوجيا، وإنما مرتبط بالإنسان باعتباره شخصا أو كائنا حرا ومسؤولا. ومن ثم فإن الأمر المطلق مرادف لفكرة الاستقامة، "وقد عرفه كانط لأول مرة في كتابه أسس ميتافيزيقا الأخلاق كما يلي: اعمل فقط وفقا لمبدأ تريد أن يكون قانونا عاما. وهو مبدأ يتوافق مع في كثير من جوانبه مع المبدأ الذي عبر عنه المسيح في كلماته المشهورة: افعل بالآخرين ما تحب أن يفعله بك الآخرون"⁴⁴. ويمكن القول إن الواجبات باعتبارها أوامر مطلقة أو قانونا عاما تتصل في النهاية بفكرة الإنسانية كغاية في ذاتها، والاستقلال الذاتي للإرادة، وكرامة الكائن العاقل وسموه⁴⁵.

4.1.4 النفوذ والسلطة (الإلزام الداخلي): يمتد نطاق التصرف الأخلاقي ليشمل كل انسان بصرف النظر عن الأقارب، العلاقات، العرق، اللون، الموقع الجغرافي⁴⁶، كما أنه يتسم بخاصية النفوذ والسلطة، وأحكامه لا مفر منها وسلطوية⁴⁷؛ وبمجرد مقارنة التعاليم الأخلاقية مثل يجب عليك الوفاء بالعهد مع قاعدة مثل تلك التي سماها كانط تعاليم البراعة: اغسل يديك بعد استخدام دورة المياه توضح مدى التفاوت في الالتزام والنفوذ والسلطة.

5. قصور ومحدودية الأخلاق المادية في نظر علي عزت بيجوفيتش:

أصبحت الأخلاق بعد دارون لغزا علميا. إذ يمكن لنظرية الانتقاء الطبيعي أن تفسر كيفية تطور رئيسيات ثنائية القدم الذكية التي تنتصب واقفة وتستخدم اللغة ولا تشبه غيرها في كثافة الشعر. لكن من أين أتت أخلاقنا؟

لقد استغرق هذا السؤال دارون نفسه. إذا كان الاعتقاد أن الانتقاء الطبيعي يعزز المصلحة الذاتية التي لا ترحم. فالأفراد الذين يستحوذون على جميع الموارد ويدمرون المنافسين سيظلون على قيد الحياة بشكل أفضل ويتكاثرون أكثر، وبالتالي يملئون العالم بنسلهم الأناني القاسي. كيف إذن يمكن للأخلاق أن تتطور في عالم أنيابه ومخالبة مخضبة بالدماء⁴⁸. فهل المقاربة البيولوجية- الاجتماعية للأخلاق قادرة على حل مشكلة الإيثار المحض؟

1.5 التمايز النوعي بين الأخلاقية الانسانية وأخلاق التطور:

إن الأفعال التي تقدمها نظرية التطور على أنها أخلاق أو سلوك إثاري هو سلوك أناني في جوهره، كما أن مفهوم الأخلاق بمعنى السلوك الاجتماعي هو مفهوم متناقض وغير مؤسس. إذ يوجد في النهاية اختلاف جذري وتباين نوعي بين الأخلاق الأصلية والأخلاق النفعية أو السلوك الاجتماعي⁴⁹.

1.1.5 مبدأ الكمال الروحي كهدف للأخلاق الأصلية: يظهر هذا الفرق في النظر إلى القيم الأخلاقية بوصفها قيما موضوعية ثابتة، وبين القيم الأخلاقية بوصفها قيما ذاتية نسبية تنتهي إلى عالم الأذواق والرغبات. فلا يمكن أن نطلق على القيم الأخلاقية التي تخدم مصلحة جماعة معينة اسم الأخلاق. إن القاعدة التي تأمر بحرمة القتل في زمن ما ومجتمع ما ثم تشرعه في أزمنة أخرى لا تسمى قاعدة أخلاقية وإنما قاعدة اجتماعية لأنها تتعارض مع ما يسعى بالأمر المطلق أو مع الفعل باعتباره قانونا عاما. ويمكن النظر إلى المجتمع باعتباره معيارا ومقياسا للخير ينتمي إلى عالم الأذواق. وتاريخ الإنسان يثبت أن السلوك الذي يتصف بالصفة الاجتماعية هو في أكثر صوره ينطوي على سمات لا أخلاقية كالإبادة، العنصرية والفاشية اتجاه من هم خارج دائرة الانتماء السياسي والاجتماعي⁵⁰. ومن هنا يرى علي عزت بيجوفيتش أن السلوك الأخلاقي يقوم دائما على الكمال الروحي وهو متسق مع الخير المثالي، والصدق والعدالة. أما السلوك الجمعي فهو قائم على التنظيم وقد يكون إجراميا، كما أن المصلحة المشتركة لا يمكن أن تكون مصلحة البشر جميعا وإنما مصلحة مجموعة محددة مغلقة قد تكون مجموعة سياسية أو وطنية أو طبقة، وقد تستدعي استغلال أو استعباد بل حتى إبادة أعضاء مجموعة أخرى⁵¹.

2.1.5 مبدأ التضحية المطلقة: كما أن الإيثار بوصفه شعورا داخليا يدعو لمساعدة الآخر حتى ولو كان غريبا وأحيانا عدوا دون توقع منفعة في المقابل وتكون نسبة احتمال الموت فيه أكثر من الحياة في حالات الإنقاذ مثلا هو نوع من السلوك الذي لا يمكن إنتاجه من خلال التطور عبر الانتقاء الطبيعي لأنه سلوك غير مشروط بمنافع محددة ولا يمكن تفسيره تفسيراً عقلياً سواء بواسطة الجين الأناني الذي يجعل الناس يحبون أنفسهم أو بنوع من المنفعة المتبادلة ومن ثم يجب التمييز بين السلوك بدافع نوع من الحب الموجود في كل واحد منا وبين السلوك بدافع الارتباط الوراثي ضمانا لبقاء الجين واستمراره. فهناك دائما سقفا وحدودا. فلا يمكن للدوافع البيولوجية خلق شعور بالمسؤولية دافع ومحفز للقفز في النهر لمحاولة إنقاذ شخص غريب وعدو مشرف على الغرق لا يحسن صاحبه السباحة⁵². توجد الكثير من المواقف المشابهة التي لا يمكن فيه تفسير السلوك الأخلاقي تفسيراً عقلياً منطقياً وبأسباب علمية محددة. من ذلك الأم التي يولد لها طفل معاق تقف حياتها له، مثل هذا الموقف لا يمكن تفسيره مادياً بمعنى أنه لا توجد غدد وأنزيمات تدفع الأم إلى أن تفعل ذلك (في المملكة الحيوانية حين يولد حيوان معوق فإن أمه تتركه أو تقتله)⁵³. ويكون من قبيل التذكير هنا أن إيمانويل كانط ميز بين الأفعال التي تكون بدافع الواجب وبين التي تكون بدافع الميول والرغبات والنزوات. وهو تصور نابع من إيمانه بثنائية الطبيعي والإنساني؛ بمعنى آخر أن الإنسان «يعيش في عالمين مختلفين. بإحساساته ودوافعه وميوله ينتمي إلى العالم الحسي ويخضع للقوانين الطبيعية التي تتحكم فيه، وهو بعقله وحده عضو في هذا العالم المعقول، مواطن في مملكة نيرة نبيلة تسمى مملكة الغايات في ذاتها»⁵⁴.

3.1.5 الأخلاق الأصلية لا معقولية فيها (غير وظيفية): ويوجد تمييز آخر يساعدنا في هذا المقام ويتمثل في التباين بين السمات التي تتفق مع مبدأ الصلاحية والوظيفية والعقلانية؛ أي التي تساعد الكائن على البقاء وتحسين النسل من جهة، وبين تلك التي لا تتمتع بصفة الصلاحية ولا تساعد الكائن على البقاء. ويمكن تصنيف جميع الأفعال التي يقال لها أخلاقية على أنها تنتمي إلى الأفعال التي لا معقولية فيها⁵⁵. إن الانتخاب الطبيعي يثمن ويحايي كل سمة تساعد الفرد في البقاء والتناسل، وفي المقابل ما الفائدة التي يمكن أن يحصل عليها الكائن من تفضيل خير الآخرين على الخير الشخصي، وحب الجار باعتباره نفس المحب، والتوق لمساعدة الغريب باعتباره أخ؟ كما أن الطيبة والمحبة والعدالة بالنسبة للأخلاق هي سمة عامة، شاملة لكل الناس ولا تقتصر على دائرة ضيقة محددة محصورة بالأقارب والعائلة والطبقة.

6. الأساس الديني للأخلاق عند بيجوفيتش:

من بين النظريات -في مجال الأخلاق- التي حاولت أن تؤسس الأخلاق اعتماداً على أساس متعال؛ فوق -طبيعي- النظرية التي حاول المفكر والفيلسوف البوسني علي عزت بيجوفيتش بسطها وتحليلها في عدد من كتبه الفلسفية مثل الاسلام بين الشرق والغرب، وكتاب سيرة ذاتية وأسئلة لا مفر منها، وهروبي إلى الحرية. وجوهر هذه المحاولة تتمثل في السعي إلى استعادة الأخلاق من نظرية التطور ومحاولة تأسيسها على الإيمان مقتفياً في ذلك طريق الفيلسوف الألماني كانط في كتابه تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ونقد العقل العملي. وتتميز محاولة علي عزت بيجوفيتش باستخدام الأسلوب المنطقي والبرهاني وتسليحه بأدوات المعرفة الحديثة في البرهنة والحجاج.

1.6 الأخلاق بلا معنى - الله ضامن السلوك الاخلاقي:.

برهن علي عزت بيجوفيتش على عدم التوافق والانسجام بين الأخلاق والمنفعة من جهة، وبين الله كضربه باعتباره محفزاً ودافعاً. ويعتبر هذا البرهان هو جوهر نظريته؛ يقول في كتابه هروبي إلى الحرية: "إذا كانت الأخلاق مفيدة لفهم الحياة والعالم، فإن الله لا ضرورة له. وإذا كانت الأخلاق غير مفيدة، فما هو المعنى الذي تحمله الأخلاق؟ حول هذا يمكن القول: الأخلاق بلا معنى - الله ضامن معنى"⁵⁶.

1.1.6 الفصل بين الأخلاق والمنفعة: من الناحية المبدئية لا توجد علاقة بين الأخلاق الأصلية وبين المنفعة على عكس ما يسعى بأخلاق النتائج والأفعال التي تتم بدافع المنفعة. فالأخلاق والمنفعة متناقضان، لأن المطالب الأخلاقية في العادة شديدة وقاسية لدرجة عدم عودتها بأي نفع أو فائدة على المرء نفسه حين يمارسها، وكل فعل ينطوي على لذة و منفعة فهو فعل غير أخلاقي وإنما هو فعل سياسي محض ولمن يحاول أن يجمع بين السلوك الأخلاقي والمنفعة نقول له: أي لذة توجد في الزهد و التبتل و التضحية المادية و الصيام، و في كثير من أنواع نكران الذات و كبح النفس والتضحية في سبيل المبدأ أو من أجل الآخرين، و المحرمات و الالتزامات التي لا تتسم بأي صفة نفعية. فهل من المفيد أن تكون عادلاً أو أن تقول الصدق؟ وبالمثل فإن التسامح الديني والسياسي والعرقى والوطني ليس مفيداً، ونفس الشيء ينطبق على حماية العجزة والمقعدين والعناية بالمعوقين والمرضى الذين لا أمل في شفائهم. كل هذا ليس من قبيل السعي وراء الفائدة⁵⁷. وعلى عكس الأخلاق التطورية التي تقيس أفعال الانسان بالنظر إلى المنفعة أو الصلاحية الانتخابية فإن كل هذه الأفعال ذات الصفة

اللانفعية لا معنى لها وبدلاً من ذلك يكون مبدأ الاستغلال أنفع وأجدي – أي ما قد يعزز الصلاحية الجينية على نحو أفضل – من نزعة الإيثار⁵⁸. يتسق المنظور التطوري للسلوك الانساني مع كل ماله علاقة بالمنفعة والربح والبقاء على قيد الحياة مثل الجرائم بكل أنواعها، والجرائم المقننة كالحروب العدوانية واحتلال الدول واضطهاد الأقليات واستغلال ونهب الدول المحتلة⁵⁹، فلا يوجد توافق ولا انسجام - في نظر علي عزت بيجوفيتش- ولا ارتباط منطقي وتاريخي بين الأخلاق الأصلية والتطور. «إذا كان كل تقدم بيولوجي أو تقني يستمد من نظرية دارون في الاختيار الطبيعي حيث يقهر الأقوى الأضعف بل ويحطمه، فلا بد أن تقف الأخلاق ضد النقطة الأساسية في التقدم. ولقد كانت الأخلاق ولا تزال تدعو إلى حماية الأضعف والأقل مقدرة وإلى الشفاعة عليه والعناية به. وهكذا، كانت الأخلاق والطبيعة في تصادم منذ البداية. (هذا هو صوت الطبيعة): تخلص من الضمير ومن الشفقة والرحمة: تلك المشاعر التي تطفئ على حياة الانسان الباطنية: اقهر الضعفاء وأصعد فوق جثثهم⁶⁰».

2.1.6 الأخلاق شكل من أشكال الدين في تاريخ الإنسان:

أ – الدافع الديني مكون فطري وأساسي في الطبيعة الانسانية: يوجد ارتباط منطقي وتاريخي بين الأخلاق والدين. وترجع هذه الفكرة رأساً إلى الفيلسوف إيمانويل كانط في تحديده للشروط التي ينبغي أن تتوفر فينا لكي يكون تحقيقنا للقانون الأخلاقي ممكناً، وكذا في حديثه عن امكانية تحقق القانون بالقدرة الكامنة فينا. "إذ لكي نتصور تحقق أمر العقل العملي ينبغي أن نوضع لا شروط داخلية لطبيعتنا فحسب بل شروط مستقلة عنا أيضاً ولا طاقة لنا بها، هذه الشروط هي بوجه عام الموضوعات الخاصة بالاعتقاد الديني: الحياة الآخرة ووجود الله⁶¹".

إذا كان - من وجهة النظر العقلانية- من المستحيل أن نقوم بفعل لا شيء آخر غير أن هذا الفعل يأمرنا بأدائه؛ أي أنه من المستحيل أن نقوم بأداء فعل مجرد من مضمونه⁶². فما الذي يدفع الانسان إلى القيام بأفعال تتجاوز نطاق المصلحة؟ بل وفي بعض الأحيان تتطلب تضحيات كبرى. على هذا الأساس افترض كانط وجود إله لأنه بغير هذا الفرض يصبح الأمر الأخلاقي غير مقبول بينما افترض العقلانيون المجتمع لأنه بغير ذلك تغدو الأخلاق ليست بذات موضوع ويمسي الواجب بذلك، ولا سند له يعتمد عليه⁶³.

ب – الأبطال الخاسرين، العالم الآخر، الحياة الخالدة: لا يمكن -في نظر علي عزت بيجوفيتش – إقامة أي نظام أخلاقي دون إله. إن علينا الاستناد إلى شيء أعلى من الحياة والمصلحة، وكل اعتماد واستناد على

شيء فوق الحياة وأعلى منها هو نوع من الاعتقاد الديني والايمان. وبما أن الأخلاقية هي سلوكنا بدافع الواجب وليس المصلحة فإن هناك سؤالاً يتمثل في: لما يقوم شخص ما بالتصرف ضد مصلحته إذا لم يكن هنالك إلا هذه الحياة ولا شيء فوقها، أو يترتب عليها أن فكرة الخير لا يمكن تعريفها منطقياً؟ إن عمل الخير لا مقابل له وليس له مردود وبالتالي لو أنه ليس هناك إلا هذه الحياة وإذا لم يكن هنالك إله، فإن هؤلاء الذين عانوا معاناة كبيرة (سقراط، المسيح، أنتيغونة) لن يكونوا أبطالا وإنما مجرد خاسرين وأن تضحياتهم ذهبت أدراج الرياح. كما أنه، وفي كثير من الأحيان - بين الموت والخيانة- تبدو الخيانة اسوأ. لماذا؟ هناك إجابة منطقية مقبولة واحدة فقط. لأن هناك شيئاً أعظم من الحياة وفي عالم من دون الله، فإن تضحية الرجل ستتجرد من أي معنى. ومن الواضح أنها ليست كذلك، وجميعاً نشعر بذلك⁶⁴. الأخلاق في النهاية؛ إنما هي دين تحولت إلى قواعد للسلوك. فإذا كان لزاماً علينا أن نحقق واجباتنا الأخلاقية - بصرف النظر عما نواجهه من مصاعب أو مخاطر- (وهذا يعتبر سلوكاً أخلاقياً متميزاً عن السلوك الذي تحفز إليه المصلحة)، فإن هذه الدعوة لا يمكن تبريرها إذا كان هذا العالم هو العالم الوحيد، وإذا كانت حياتنا فيه هي الحياة الوحيدة، وهنا تبرز نقطة الانطلاق لكل من الدين والأخلاق⁶⁵.

ج- لا توجد أخلاق بلا محرمات: من الناحية التاريخية الأنثروبولوجية توجد علاقة بين الأخلاق والمحرمات. والمحرمات دينية في طبيعتها وفي أصلها ويمكن أن نشير هنا إلى أن ثمانين من الوصايا العشرة في التوراة محرمات. كما أن الأخلاق هي مبدأ تحريم يناقض الغريزة الحيوانية في طبيعة الإنسان ومثال ذلك الأخلاق المسيحية. إن تاريخ الدين حافل بهذه المحرمات التي تبدو كأنها بلا معنى. لكن من وجهة نظر الأخلاق، لا توجد محرمات بغير معنى. يمكن وجود معنى عقلائي للمحرم، ولكن ليست المنفعة هي الهدف الجوهرية للمحرم⁶⁶.

ما تقدم ذكره هو محاولة تبرير الأخلاق ليس على ضوء البرهان العلمي لأنه لا يمكن في الأساس البرهنة على التضحية -باعتبارها أرقى مراتب السلوك الأخلاقي - بواسطة البراهين العلمية، وإنما فقط يمكن تبريرها بواسطة البراهين الدينية. "إن الأخلاق كظاهرة واقعية في الحياة الإنسانية لا يمكن تفسيرها تفسيراً عقلياً، ولعل في هذا الحجة الأولى والعملية للدين. فالسلوك الأخلاقي، إما أنه لا معنى له، وإما أن له معنى في وجود الله، وليس هناك اختيار ثالث. فإما أن نسقط الأخلاق باعتبارها كومة من التعصبات، أو أن ندخل في المعادلة قيمة يمكن أن نسميها الخلود، فإذا توافر شرط الحياة الخالدة، وأن هناك عالم آخر غير هذا العالم، وأن الله موجود، بذلك يكون سلوك الإنسان الأخلاقي له معنى مبرر"⁶⁷.

7. الخاتمة:

النسخة التي قدمتها نظرية التطور على أنها تمثل تناظرا للأخلاقية الانسانية (الايثار، التضحية) ومفسرة لها في نفس الوقت هي نسخة عاجزة وقاصرة لأنها لم تتجاوز نطاق الأنانية والمصلحة والطبيعة عكس نزعة الإيثار الأصلية التي تمثل كل سلوك يكون فيه الحافز منافع الآخر وفوائده ويكون الفعل بناءا على تعاطف واهتمام أصيل اتجاه الآخر لا من رغبة المرء في الحصول على كل ما يفيد. يبدو هذا التعريف من وجهة نظر الانتخاب الطبيعي مفهوما متناقضا ولا يمكن استيعابه وتمثله وقد اشار داروين نفسه أن وجود مثل هذا السلوك غير العقلاني قد يقوض نظرية التطور ويهدمها من أساسها. إن أخلاق التضحية لا تنسجم ولا تتوافق مع التطور ولا يمكن تفسيرها تفسيراً مادياً وهذا يطرح مشكلة بالنسبة لهذه النظرية. فاذا كان الإنسان قد تحدر من أسلاف حيوانية تفتقر إلى ميزة الإيثار، وأن الانتخاب الطبيعي عاجز عن تجاوز الصور الثلاثة المذكورة لأن كل تجاوز تناقض، فكيف نفسر تجذر وتشكل هذه الخاصية في أفراد هم أنانيون بطبعهم وبواسطة الانتخاب الطبيعي؟

8. قائمة المصادر والمراجع:

قائمة المصادر:

- إيمانويل كانط: تأسيس ميتافيزيقا الاخلاق، عبد الغفار مكاوي، بيروت، بغداد، منشورات الجمل.
- إميل دوركايم: علم اجتماع وفلسفة، حسن أنيس، مصر، المكتبة الانجلو مصرية.
- تشارلز دارون: أصل الأنواع، مجدي محمود الميحي، مصر، المجلس الأعلى للثقافة.
- علي عزت بيجوفيتش: اسئلة ذاتية واسئلة لا مفر منها، عبد الله الشناق، دمشق، دار الفكر.
- علي عزت بيجوفيتش: الاسلام بين الشرق والغرب، محمد عدس، مصر، دار الشروق.
- علي عزت بيجوفيتش: هروبي الى الحرية، اساميل ابو الهندورة، ط1، دار الفكر، دمشق، 2002، ص83

قائمة المراجع:

- ارنست ماير: هذا هو علم البيولوجيا، عفيفي محمود عفيفي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- آل.و. وود: كانط فيلسوف النقد، بدوي عبد الفتاح، مصر، المركز القومي للترجمة.
- ايميل بوترو: فلسفة كانط، عثمان أمين.
- ايكارد فولاند: التطور البيولوجي للعقل والسلوك الدينيين. مصطفى إبراهيم فهمي، مصر، المركز القومي للترجمة.
- برايان تشارلز وورث: التطور مقدمة قصيرة، محمد فتحي خضر، مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- بول إيرلش: آلة الطبيعة الايكولوجيا من منظور تطوري حسين بيومي، مصر، المجلس الاعلى للثقافة.
- جان ماري بيلت: عودة الوفاق بين الانسان والطبيعة، السيد محمد عثمان، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- جوشوا غرين: قبائل أخلاقية، ربيع وهبة، معنى للنشر والتوزيع.
- جون لينوكس: العلم ووجود الله، ماريانا كيثوت.
- جون. س. افيس: مسارات التطور في الطبيعة، مصر، المركز القومي للترجمة.
- دافيد. ن ستاموس: التطور والاسئلة الكبرى، عزة عامر، مصر، المركز القومي للترجمة.
- دينيس بويكان: البيولوجيا تاريخ وفلسفة، لبنى الريدي، مصر، المركز القومي للترجمة.

- روبرت. اغروس: العلم في منظوره الجديد، كمال خلايلي، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- عبد الرحمان بدري: الأخلاق النظرية الكويت، وكالة المطبوعات.
- عبد الوهاب المسيري: الثقافة والمنهج، سوريا، دار الفكر.
- كيلى جيمس كلارك: الدين وأصل الكون والحياة، إسلام سعد، لبنان، مركز نهوض للدراسات والبحوث،
- فرانسيس كولينز: لغة الإله، صلاح الفضلي، الكويت، مكتبة الكويت الوطنية.
- فريدريك انجلز: دور العمل في تحول القرد الى الانسان، موسكو، دار التقدم.

الهوامش

- ¹ - روبرت م. اغروس، العلم في منظوره الجديد، كمال خلايلي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989، ص 08
- ² - كيلى جيمس كلارك، الدين وأصل الكون والحياة، إسلام سعد، ط01، مركز نهوض للدراسات والبحوث، لبنان، 2021، ص 141
- ³ - برايان تشارلز وورث، التطور مقدمة قصيرة، محمد فتحي خضر، ط01، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2016، ص 71
- ⁴ - ايكارت فولاند، التطور البيولوجي للعقل والسلوك الدينيين، مصطفى إبراهيم فهمي، ط01، المركز القومي للترجمة، مصر، 2015، ص 40
- ⁵ - كيلى جيمس كلارك، الدين وأصل الكون والحياة، ص 282
- ⁶ - برايان تشارلز وورث، التطور مقدمة قصيرة، ص 69
- ⁷ - مايكل ريوس، داروين، فتح الله الشيخ، ط01، المركز القومي للترجمة، مصر، 2010، ص 42
- ⁸ - تشارلز داروين، أصل الأنواع، مجدي محمود المليحي، ط01، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2004، ص 93
- ⁹ - كيلى جيمس كلارك، الدين وأصل الكون والحياة، ص 169
- ¹⁰ - أرنست ماير، هذا هو علم البيولوجيا، عفيفي محمود عفيفي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2002، ص 102
- ¹¹ - دينيس بويكان، البيولوجيا تاريخ وفلسفة، لبنى الريدي، ط1، المركز القومي للترجمة، 2017، ص 52
- ¹² - مايكل ريوس، داروين، ص11
- ¹³ - جان ماري بيلت، عودة الوفاق بين الانسان والطبيعة، السيد محمد عثمان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1994، ص 15
- ¹⁴ - بول إيرليش، آله الطبيعة الايكولوجيا من منظور تطوري، حسين بيومي، المجلس الاعلى للثقافة، مصر، 2000، ص 146
- ¹⁵ - تشارلز داروين، أصل الأنواع، ص 155
- ¹⁶ - أرنست ماير، هذا هو علم البيولوجيا، ص 209
- ¹⁷ - برايان تشارلز وورث، التطور مقدمة قصيرة، ص 74
- ¹⁸ - المرجع نفسه، ص 76
- ¹⁹ - برايان تشارلز وورث، التطور مقدمة قصيرة، ص 78
- ²⁰ - جون س. ايفيس، مسارات التطور في الطبيعة، ط 01، المركز القومي للترجمة، مصر، 2014، ص 338
- ²¹ - جون لينوكس، العلم ووجود الله، ماريانا كنيكوت، ص 174، 175
- ²² - كيلى جيمس كلارك، الدين وأصل الكون والحياة، ص 172
- ²³ - كيلى جيمس كلارك، الدين وأصل الكون والحياة، ص 288
- ²⁴ - أرنست ماير، هذا هو علم البيولوجيا، ص 279
- ²⁵ - دافيد ن. ستاموس: التطور والاستغلة الكبرى، عزة عامر، المركز القومي للترجمة، 2014، ص 293
- ²⁶ - كيلى جيمس كلارك، المرجع السابق، ص 283
- ²⁷ - أرنست ماير، هذا هو علم البيولوجيا، ص 80
- ²⁸ - المرجع نفسه، ص 82
- ²⁹ - فريدريك انجلز، دور العمل في تحول القرد الى انسان، دار التقدم، موسكو، ص10
- ³⁰ - كيلى جيمس كلارك، الدين وأصل الكون والحياة، ص 286
- ³¹ - جوشوا غرين، قبائل اخلاقية، ص30

- 32- ارنست ماير، المرجع نفسه، ص 282
- 33- جوشوا جرين، قبائل أخلاقية، ص 36
- 34- إميل دوركايم، علم اجتماع وفلسفة، حسن أنيس، ط 01، المكتبة الانجلو مصرية، مصر، 1966، ص 39
- 35- المرجع نفسه، ص 98
- 36- فرانسيس كولينز، لغة الآله، صلاح الفضلي، الكويت، مكتبة الكويت الوطنية، ط 01، ص 32
- 37- إيمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الاخلاق، عبد الغفار مكاوي، ط 02، منشورات الجمل، بيروت، بغداد، 2014، ص 65
- 38- كيكي جيمس كلارك، الدين وأصل الكون والحياة، ص 273
- 39- علي عزت بيغوفيتش، الاسلام بين الشرق والغرب، محمد عدس، ط 01، دار الشروق، مصر، 2010، ص 180
- 40- جوشوا غرين، قبائل أخلاقية، ربيع وهبة، ط 01، معنى للنشر والتوزيع، 2021، ص 33
- 41- عبد الرحمان بدوي، الاخلاق النظرية، ط 02، وكالة المطبوعات، الكويت، 1976، ص 31
- 42- إيمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ص 80
- 43- المصدر نفسه، ص 85
- 44- علي عزت بيغوفيتش، الاسلام بين الشرق والغرب، ص 227 – 228
- 45- آلن و. وود، كانط فيلسوف النقد، بدوي عبد الفتاح، ط 01، المركز القومي للترجمة، مصر، 2014، ص 189
- 46- كيكي جيمس كلارك، الدين وأصل الكون والحياة، ص 279
- 47- المرجع نفسه، ص 295
- 48- جوشوا جرين، قبائل أخلاقية، ص 32
- 49- علي عزت بيغوفيتش، الاسلام بين الشرق والغرب، ص 199
- 50- كيكي جيمس كلارك، الدين وأصل الكون والحياة، ص 288
- 51- علي عزت بيغوفيتش، الاسلام بين الشرق والغرب، ص 203
- 52- فرانسيس كولينز: لغة الآله، ص 36، 37
- 53- عبد الوهاب المسيري، الثقافة والمنهج، ط 02، دار الفكر، سوريا، 2010، ص 39
- 54- إيمانويل كانط: تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ص 10
- 55- كيكي جيمس كلارك، الدين وأصل الكون والحياة، ص 280
- 56- علي عزت بيغوفيتش: هروبي الى الحرية، اساعيل ابو البندورة، ط 1، دار الفكر، دمشق، 2002، ص 83
- 57- علي عزت بيغوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ص 198
- 58- كيكي جيمس كلارك: الدين وأصل الكون والحياة، ص 299
- 59- علي عزت بيغوفيتش، المصدر السابق، ص 199
- 60- علي عزت بيغوفيتش: الاسلام بين الشرق والغرب، ص 193
- 61- إميل بوترو: فلسفة كانط، عثمان أمين، ص 377
- 62- إميل دوركايم: علم الاجتماع وفلسفة، ص 69
- 63- إميل دوركايم، علم الاجتماع وفلسفة، ص 92
- 64- علي عزت بيغوفيتش: أسئلة ذاتية وأسئلة لا مفر منها، عبد الله الشناق، ط 01، دار الفكر، سوريا، 2004، ص 699
- 65- علي عزت بيغوفيتش، الاسلام بين الشرق والغرب، ص 192
- 66- المصدر نفسه، ص 191
- 67- علي عزت بيغوفيتش، المرجع نفسه، ص 177